

الإمام السجاد (ع) والارتقاء بالعبيد

2020-09-13 الشيخ عبد الله يوسف

عرفت الشعوب والأمم منذ زمن بعيد الرق، وهو استملاك الإنسان للإنسان، وقد كان معمولاً بهذا الأمر قبل الإسلام وبعده، ولم تتخلص البشرية منه بشكل قانوني ورسمي إلا في القرن العشرين الميلادي.

وقد شجع الإسلام على تحرير العبيد وعتقهم، وذلك من خلال أسلوبين في غاية الأهمية والحكمة وهما:

الأسلوب الأول: التشجيع على تحرير العبيد وعتقهم، واعتبار ذلك من أفضل القربات إلى الله تعالى. كما جعل عتق رقبة كفارة للعديد من الأخطاء والجنايات التي يرتكبها المسلم كالإفطار في شهر رمضان عمداً، وكفارة الحنث باليمين، وكفارة النذر، وكفارة قتل شخص عن طريق الخطأ... وغيرها.

الأسلوب الثاني: غلق كل المنافذ الموجبة إلى الاسترقاق، فقد سدّ الإسلام الكثير من الأسباب والأساليب الموجبة للاسترقاق باستثناء حالة واحدة وهي: التعامل بالمثل في الحروب، حيث أن المشركين والكفار كانوا سيقربون الأسرى المسلمين مما دفع إلى التعامل معهم بالمثل، كما يجوز التعامل مع الأسرى باليمن والفداء كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [1].

فالإسلام كان يشجع على تحرير العبيد من جهة، ومن جهة أخرى كان يعتبر الاتجار بالبشر من أبغض التجارات وأشدّها كراهية.

الإمام والموالي

إن ظاهرة الموالى (العبيد) من الظواهر البارزة في الكثير من المجتمعات البشرية، وخاصة في

القرون الماضية، حيث كانت ظاهرة العبيد من الظواهر المنتشرة، ومن العادات المقبولة في الوسط الاجتماعي آنئذ، إذ يتم الاستفادة منهم في الخدمة والعمل في المنازل والبيوت، وخاصة بيوت الأشراف، وأهل الجاه والمال.

وفي عهد الإمام السجاد (عليه السلام) انتشر العبيد بكثرة في المجتمع، نتيجة دخول المسلمين إلى بلاد أخرى، والتوسع في الرقعة الجغرافية، إذ أنه «في زمن الإمام زين العابدين (عليه السلام) الذي عاصر حكم عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بن عبد الملك، توجه عبد الملك بن مروان وبالذات بعد قضائه على الحركة الزبيرية في الحجاز والعراق، توجه صوب توسعة الرقعة الإسلامية وخاصة في أفريقيا، وتمكن من أن يغنم من الأموال ما لا يعد من الذهب والمجوهرات، حتى كانت عبارات المؤرخين (ما الله أعلم به)» [2].

وفي الأندلس تمكن طارق بن زياد وموسى بن نصير من العثور على مائدة وعرش سليمان، وهذه الثروة بطبيعتها ترفع من المستوى المعاشي للمجتمع وخاصة أصحاب الوجاهة والرموز الاجتماعية في الأمة، حيث يدفع لهم الحاكم الهدايا والعطايا ويقضي حوائجهم هذا فضلاً عن العطاء الثابت سنوياً.

وكذلك غنم المسلمون من هذه البلاد أكثر من 60 ألف مسبي، وتحول كل هؤلاء إلى موالي بداخل الأمة [3]، ونص عبارة ابن الاثير هي: فبلغ الخمس ستين ألف رأس من السبي ولم يذكر أحد أنه سمع بسبي أعظم من هذا [4].

وعندما عاد الجيش الإسلامي إلى دمشق جلب معه 30 ألف جارية بكر كما جاء عن بعض المؤرخين.

وهذا الأمر فرض وجود أعداد كبيرة من الإماء والجواري والموالي في بيوت ومجتمع المسلمين، وهو ما يترتب عليه من آثار اجتماعية وثقافية وأخلاقية وتربوية عديدة ومتنوعة، وتحتاج إلى معالجات جادة.

وقد تعامل الإمام السجاد (عليه السلام) تعاملًا إنسانياً راقياً مع فئة العبيد، وبذل جهده للارتقاء بهم علمياً ودينياً وأخلاقياً حتى تحول العديد منهم إلى أعضاء فاعلين ومؤثرين في المجتمع المسلم.

وبالرغم من النظرة الدونية للعبيد من قبل الأوساط الاجتماعية في المدن الإسلامية ومنها المدينة المنورة حيث كان الأهالي لا يرغبون في التزوج من الإماء والإنجاب منهن.

«وقد كانت ظاهرة الإنجاب من الموالى غير مرغوب فيها من قبل أهل المدينة للوضع الاجتماعي الذي كان آنذاك، ومن أهم أسبابه هو عدم الرغبة في أن يكون الولد وفيه عرق غير عربي، وكانوا يرون أن ذلك يؤثر على موقع الابن بين الأمة في كفاءته أو احترام الناس إليه، حتى كان موقع الإمام زين العابدين (ع) فتغيرت نظرهم لذلك» [5].

«وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم علي بن الحسين بن علي، وفاق أهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً، فرغب الناس حينئذٍ في السراري» [6].

وقد كسر الإمام السجاد (عليه السلام) ظاهرة عدم الزواج من الإماء، فتزوج أمته، وهو ابن بنت رسول الله، ولا يدانيه في النسب والحسب أحد مما شجع الآخرين على التزوج منهن، والإنجاب أيضاً.

التعامل الإنساني للإمام السجاد (عليه السلام) مع العبيد

يمكن أن نركز الحديث حول تعامل الإمام السجاد (عليه السلام) الإنساني مع العبيد في النقاط التالية:

1- تعليم العبيد:

اهتم الإمام السجاد (عليه السلام) كثيراً بمسألة تربية العبيد على القيم الدينية والأخلاقية، وتعليمهم أهم مسائل وأحكام الإسلام، ثم عتقهم بعد ذلك.

وقد دفع هذا الأمر بهؤلاء العبيد إلى الولاء للإمام السجاد (عليه السلام) والبقاء على ولائهم وخطهم العقائدي لأهل البيت (عليه السلام)، والوفاء للإمام (عليه السلام) بالدفاع عنه، ورفض التعرض له بأي سوء.

2- تزوج الإمام والإنجاب منهن:

كان للروح القبلية، والعصبية القومية، والأعراف الجاهلية أثرها السلبي في التعامل مع الموالي والإمام.

ولكن الإمام السجاد (عليه السلام) قد تجاوز كل تلك الأعراف والتقاليد العربية المتوارثة من الجاهلية، وتزوج بنفسه الشريفة من الإمام مع ما له من مقام رفيع، ومنزلة علمية عميقة، ونسب عربي أصيل، إلا أنه أراد أن يثبت الأحكام الشرعية، ومقاصد الإسلام الكبرى، والتخلص من الروح الطبقية والقبلية الخاطئة.

وقد حاول الأمويون النيل من مقام الإمام السجاد (عليه السلام)، والتقليل من مكانته، والغمز لزواجه من أمته، إلا أن الإمام (عليه السلام) أجابهم بمنطق الإسلام القوي والواضح.

فقد رصد عيون عبد الملك بن مروان الذين بثهم والي المدينة لمراقبة قادة الأمة ورموزها وعلى رأسهم الامام علي بن الحسين السجاد (عليه السلام) أنه قد تزوج أمته.

إذ كان لعبد الملك بن مروان عين بالمدينة يكتب إليه بأخبار ما يحدث فيها، وإن علي بن الحسين (عليه السلام) أعتق جارية له ثم تزوجها، فكتب العين إلى عبد الملك، فكتب عبد الملك إلى علي بن الحسين (عليه السلام): أما بعد، فقد بلغني تزويجك مولاتك، وقد علمت أنه كان في أكفائك من قريش من تمجد به في الصهر وتستنجه في الولد، فلا لنفسك نظرت ولا على ولدك أبقيت والسلام.

فكتب إليه علي بن الحسين (عليه السلام): أما بعد: فقد بلغني كتابك تعنفني بتزويجي مولاتي، وتزعم أنه كان في نساء قريش من أتمجد به في الصهر وأستنجه في الولد، وأنه ليس فوق رسول

اللَّهُ مرتقى في مجد ولا مستزاد في كرم، وإنما كانت ملك يميني خرجت مني كما أراد الله جل وعز مني بأمر التمسست به ثوابه ثم ارتجعتها على سنة، ومن كان زكياً في دين الله تعالى فليس يخل به شيء من أمره، وقد رفع الله بالإسلام الخسيصة، وتمم به النقيصة، وأذهب اللؤم، فلا لؤم على امرئ مسلم، وإنما اللؤم لؤم الجاهلية والسلام.

فلما قرأ الكتاب رمى به إلى ابنه سليمان فقرأه، فقال: يا أمير المؤمنين لشد ما فخر عليك علي بن الحسين (عليه السلام).

فقال: يا بني لا تقل ذلك، فإنها ألسن بني هاشم التي تفلق الصخر وتغرف من بحر، إن علي بن الحسين يا بني يرتفع من حيث يتضع الناس [7].

وينقل لنا التاريخ أيضاً حوار ساخن بين زيد بن علي (عليه السلام) وهشام بن عبد الملك الأموي، إذ دخل زيد بن علي على هشام بن عبد الملك، وقد جمع له هشام أهل الشام وأمر أن يتضايقوا في المجلس حتى لا يتمكن من الوصول إلى قربه.

فقال له زيد: إنه ليس من عباد الله أحد فوق أن يوصي بتقوى الله، ولا من عباده أحد دون أن يوصى بتقوى الله، وأنا أوصيك بتقوى الله يا أمير المؤمنين فاتقه.

فقال له هشام: أنت المؤهل نفسك للخلافة، الراجي لها؟ وما أنت وذاك، لا أم لك، وإنما أنت من أمة!

فقال له زيد: إني لا أعلم أحداً أعظم منزلة عند الله من نبي بعثه وهو ابن أمة، فلو كان ذلك يقصر عن منتهى غاية لم يبعث، وهو إسماعيل ابن إبراهيم (عليهما السلام)، فالنبوة أعظم منزلة عند الله أم الخلافة يا هشام؟ وبعد فما يقصر برجل أبوه رسول الله: (صلى الله عليه وآله) وهو ابن علي بن أبي طالب (عليه السلام) [8].

فالأمويون يتحدثون بمنطق الجاهلية، حيث العصبية والاستعلاء بينما الإمام السجاد (عليه السلام)

وابنه زيد يتحدثون بمنطق الإسلام الذي حطم الأعراف والعادات الجاهلية المقيتة.

3-التسامح مع العبيد:

اتصف تعامل الإمام السجاد (عليه السلام) مع العبيد والإماء بالرحمة والعفو والإحسان والصفح والتواضع والتسامح معهم.

وقد سجل لنا التاريخ الكثير من القصص والشواهد على ذلك، ومنها:

أ- إن مولى لعلي بن الحسين (عليه السلام)، كان يتولى عمارة ضيعة له، فجاء ليطلعها فأصاب فيها فساداً وتضييعاً كثيراً، غاظه ما رآه وغمه، ففرع المولى بسوط كان في يده، وندم على ذلك.

فلما انصرف إلى منزله، أرسل في طلب المولى، فأتاه فوجده عارياً والسوط بين يديه، فظن أنه يريد عقوبته، فاشتد خوفه، فأخذ علي بن الحسين (عليه السلام) السوط ومد يده إليه، وقال: « يا هذا، قد كان مني إليك ما لم يتقدم مني مثله، وكانت هفوة وزلة، فدونك السوط واقتص مني»، فقال المولى: يا مولاي، والله إن ظننت إلا أنك تريد عقوبتي، وأنا مستحق للعقوبة، فكيف اقتص منك؟!

قال: «ويحك اقتص».

قال: معاذ الله، أنت في حل وسعة، فكرر ذلك عليه مراراً، والمولى كل ذلك يتعاضم قوله ويحالفه، فلما لم يره يقتص، قال له: « أما إذا أبيت، فالضيعة صدقة عليك » وأعطاه إياها [9].

ب- جعلت جارية لعلي بن الحسين (عليه السلام) تسكب الماء عليه وهو يتوضأ للصلاة، فسقط الإبريق من يد الجارية على وجهه فشجه، فرفع علي بن الحسين (عليه السلام) رأسه إليها.

فقال الجارية: إن الله عز وجل يقول: ﴿وَالْكَافِرِينَ الْعَيْظَةَ﴾.

فقال (عليه السلام) لها: قد كظمت غيظي.

قالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.

قال (عليه السلام) لها: قد عفى الله عنك.

قالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

قال (عليه السلام): اذهبي فانتِ حرة [10].

ج- دعا علي بن الحسين مملوكه مرتين فلم يجبه ثم أجابه في الثالثة، فقال: يا بني أما سمعت صوتي؟

قال: بلى.

قال: فلم لم تجبني؟

قال: أمنتك.

قال: الحمد لله الذي جعل مملوكي يأمني [11].

وهذه القصص تدل على تسامح الإمام السجاد (عليه السلام) وتعامله بلطف ورفق وعفو وإحسان وإنسانية لا نجد لها مثيلاً ولا نظيراً إلا عند جده رسول الله (صلى الله عليه وآله) وآبائه الطاهرين.

4- عتق العبيد سنوياً:

اتخذ الإمام السجاد (عليه السلام) منهج تحرير العبيد؛ فكان يقيم محفلاً سنوياً لعتقهم من أجل نيل

الثواب والأجر، وأيضاً تشجيع الآخرين على العتق، وذلك لتحقيق حرية الإنسان، والتخلص من العبودية.

وقد كان الإمام (عليه السلام) يقتني الكثير من العبيد ويعيشون معه مدة من الزمن، ثم يطلق سراحهم ليعيشوا أحراراً.

«وما من سنة الا وكان يعتق فيها في آخر ليلة من شهر رمضان المبارك ما بين العشرين رأساً إلى أقل أو أكثر..» [12].

وما استخدم خادماً فوق حول، وكان إذا ملك عبداً في أول السنة أو في وسط السنة، إذا كان ليلة الفطر اعتق واستبدل سواهم في الحول الثاني، ثم اعتق، كذلك كان يفعل حتى لحق بالله تعالى.

ويظهر من بعض الروايات أن الإمام كان يقيم مهرجانين لعتق العبيد سنوياً، الأول في نهاية شهر رمضان. والثاني بعد الانتهاء من الوقوف بعرفة، حيث كان يقتنيهم مع قرب موسم الحج، ويعتقهم في اليوم التاسع من ذي الحجة.

ونتيجة لهذا التعامل الإنساني للإمام السجاد (عليه السلام) فقد أصبح له الكثير من المؤيدين في هذه الشريحة الاجتماعية، وقد وقفوا مع الإمام في الكثير من المواقف الصعبة كوقوفهم مع ثورة المختار بن أبي عبيدة الثقفي ضد الأمويين، ودفاعهم عن الإمام السجاد (عليه السلام) ضد من يحاول النيل منه، أو الانتقاص من مكانته. وحافظ الكثير منهم على ولائهم للإمام (عليه السلام)

، وتمسكهم بمنهجه العقائدي والديني والفكري لما رأوه من تعامل إنساني رفيع، ولما وجدوه عنده من أخلاق راقية وإنسانية لم يجدوا مثلها في أي مكان آخر.

لقد غير الإمام السجاد (عليه السلام) بتعامله الإنساني الرفيع مع العبيد حياة الكثيرين منهم، واستطاع دمجهم في المجتمعات المسلمة، وكسب محبتهم وقلوبهم وعقولهم، مما جعلهم قوة إضافية لقوة المسلمين، وأتباع مدرسة أهل البيت الأطهار.

الهوامش:

[1] سورة محمد، الآية:4.

[2] الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 4، ص 277. تاريخ الطبري، ج 4، ص 19.

[3] موسوعة الإمام زين العابدين، الشيخ محسن الحسيني، ج2، ص166.

[4] الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 4، ص 252.

[5] موسوعة الإمام زين العابدين، الشيخ محسن الحسيني، ج2، ص166.

[6] تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ج 20، ص 57. عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري، ج 4، ص 10.

[7] فروع الكافي، الشيخ الكليني، ج 3، ص 348، ح 4. الوافي، الفيض الكاشاني، ج 22، ص 46، ح

20864. الوسائل، الحر العاملي، ج 20، ص 72 - 73، ح 25063.

[8] بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج 46، ص 186 - 187، ح 52.

[9] مستدرك الوسائل، النوري الطبرسي، ج 18، ص 288، ح 22773. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج

46، ص 94.

[10] مستدرك الوسائل، النوري الطبرسي، ج 1، ص 345، ح 801. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج

46، ص 68، ح 36.

[11] تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ج 41، ص 387. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج 46، ص 56،

ح 6.

[12] موسوعة الإمام زين العابدين، ج 2، ص 181.